

## رحلة الحجاز \*

٤

### السفر الى مكة المكرمة

في صبيحة يوم السبت سافر ركب المحمل المصري من جدة قبل شروق الشمس وفي ضحوته سافرت الوالدة والشقيقة ومعهما الصديق الكريم الشيخ خالد النقشبندي والصهر الحميم محمد نجيب أفندي وقد استأجرنا لهم أربعة جمال بجنيهن اثنا للركوب واثنا للحمل المتاع (الغنص) وأرسلت حكومة جدة معهم جنديان عربيان من جنود الشريف المهجاة للخفارة وزودهم صديقنا ومضيفنا الشيخ محمد نصيف بأنفس الزاد الكافي . وتأخرت عنهم لأنام ما كنت بدأت به من كتابة نبذة من التفسير للمنار لارسالها مع البريد من جدة مع كتابة مالا بد من كتابته الى مصر . ثم سافرت بعد صلاة العصر من هذا اليوم على حمار استأجرته بمئة قرش عما في ولم أ كدأظفر به لولا مساعدة الاصدقاء لان المغاربة والمصريين قد سبقوا الى استئجار جميع خير البلد أو أكثرها . وسافر معي جنديان من هجاة العرب بأمر الحكومة لاجل التكرم لا الحفظ فاتها واثمة بامن الطريق، وركب معي الشيخ محمد نصيف والشيخ مساعد اليافي مدير الشرطة في جدة وبعض الاصدقاء مشيعين مودعين ثم عادوا عند غروب الشمس الى جدة وقد زودني الصديق المضيف بالزاد النفيس الكافي كما زود الاكل والصحب واختار لي شابا نشيطا من أهل جدة للخدمة في الطريق وأخذ الحمار في مكة وأدركنا في الطريق أحد الحجاج المصريين على حمار فراقنا .

### العناية بأمر الماء في السفر

ولم أهتم لنفسي الا بملء إيريقي المعدني الذي يحفظ ما يودع فيه من بارد وحرار زمانا طويلا بقطع الثلج وملءه من الماء النقي . ذلك يأتي أعني بأمر الماء مالا أعني بأمر الطعام ولا سيما في السفر ، ولا يشق عليّ فقد في من طيبات الدنيا

التي اعتدتها الا الماء البارد النقي : وهذا الابر يق من نوع الروايات الواردة اوعية  
الماء للسفر) الافرنجية التي يسمون واحدا (ترموس) وأكثر هذا النوع عمودي  
الشكل وهو يحفظ ما يودع فيه من بارد وحارّ يوما وليلة بالتقريب، وأبريقي الذي  
ذكرت يخالفها في الشكل والجودة فهو نوع جيد يحفظ الثلج أو الجليد عدة أيام  
لا يذوب منه الا القليل وقد ملاّته بالثلج مرة في طرابلس الشام وسافرت قاصدا مصر  
فبت في بيروت ليلتين وفي البحر ليلتين بعدها لم أحتج فيها اليه لاني أعده لشرب  
الليل والماء المتلوج يتيسر في الباخرة عامة النهار وناشئة الليل، وقد اتفق ان كان منزلي  
(القمر) من الدرجة الاولى بجانب مستودع الماء المتلوج للباخرة ، وفي ضحوة  
اليوم الخامس نزلنا في محجر الاسكندرية الصحي فتماهدت الابر يق فاذا بالثلج فيه  
لم يذب الا بعضه . وقد كان هذا الابر يق هدية من سلطان مسقط السابق السيد  
فيصل رحمه الله تعالى - ولم أر هذا النوع الا عنده أهدها الي عند سفري من مسقط سنة  
١٣٣٠ اذ رأى أنني حين كنت في ضيافته لم أسأل عن شيء الا عن الماء المتلوج . وكان  
عنده آلة اصنع الثلج ولكنها كانت معطلة في فصل الشتاء وكان وصولي الي مسقط في  
أول فصل الربيع والشمس في برج الحمل (شهر ابريل - نيسان) فأمر باصلاح  
الآلة واستعمالها قبل الموعد المعتاد عندهم لاجلي ، ووضع عندي في دار الضيافة  
إبريقا من هذا النوع الذي تكلم عنه ليتيسر وجود الثلج عندي في كل ساعة من الليل  
والنهار، ولما سافرت وجدت مع متاعي في الباخرة إبريقا آخر منه جديدا لم يستعمل  
من قبل، فاستفدت منه في سفري ذلك ، وكان أكبر نفعه في السفر من البصرة الي  
بغداد في شط العرب ودجلة اذ قل الثلج في الباخرة بين العمارة وبغداد ثم نفعه ثم في  
السفر من بغداد الي حلب، ولا يوجد الثلج بينهما الا في مدينة دير الزور وهي بين  
العراق وسورية، وكان شأننا في تدير ماء الشرب في ذلك الطريق - الذي قطعناه  
في ١٨ ليلة في مركبات (عربات) سفرية تسير على ضفاف الفرات لا تبعد عنه في  
بعض الاحيان الا قليلا - اتنا كنا كلما نزلنا منزلا في المساء نأدرالي تقطير الماء  
في قدور من الفخار ثم نبرده بهواء الليل الجاف البارد في أكواز (قلل) الماء البغدادية  
وفي قلة معدنية مغطاة بقماش يبلل بالماء فيبرد المعدن بضرب الهواء له ويبرد الماء

برده ، — وهذه القلة أهداها الي الطيب النظامي محمد عبد الولي في مدينة لكهنو بالهند — وكنت قبل الادلاج في آخر الليل املا الابريق المهبود من هذا الماء وترمسا آخر عموديا من النوع المعروف لكثرته في هذه البلاد كان أهدها الي صديقي السيد يوسف الزاوي أكبر سروات مسقط بعديت السلطان فيها ، فكنت أشرب في بكرة النهار من هذا وأدخر ذلك الي العشي لانه أحفظ والتغير فيه أبطأ ، وقد انكسر العمودي معي في حماه ، ولا أسف عليه لان مثله كثير ، الا أنه أثر من صديق ، ثم انكسر الاول في مصر فأمتي كسره اطرافته وفائدته ولكونه أثرا من ذلك السلطان الكريم سقى الله لحده ، ولكن نجله البر الوفي صديقي السيد نادر قائد الجيش الاول للسلطنة مسقط أهدها الي أريفا آخر عوضا عنه ، وهو الذي كان معي في الحجاز وكان ما حملت فيه من الثلج كافيا لي بين جدة ومكة الا أن ماء قرية الجلد تغير في الطريق لانها كانت بعيدة العهد بالاستعمال

وسبب حفظ الترمس لما يودع فيه مدة طويلة هو انه مؤلف من أناثين أحدهما وهو الظاهر معدني وثانيهما زجاجي باطنه كالمرآة وظاهره مقشى بمادة من المواد البطيئة التوصل للحرارة والبرودة ويوضع الزجاجي في باطن المعدني منفصلا عنه ويكون الاتصال بينهما من أعلى الفوهة ولهذا الفوهة صمام ( سدادة ) من الفلين على رأسه قطعة من معدنه الابيض ويكون فوقها غطاء معدني المتصل به ، فاذا رفع الصمام قليلا أمكن صب الماء من بلبل الابريق

أطلت في مسألة الماء ليستفيد مما كتبت من يعنون بأمر صحتهم ورفاهتهم في السفر . والعناية بأمر الماء المحمودة بل ضرورية ، فالماء الرديء يكون سببا لامراض كثيرة ، إذ الماء يحمل من جراثيم الامراض والاوبئة ما لا يحمل غيره . وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يأكل ما وجد ولا يندم طعاما ولكنه لم يكن يشرب من كل ماء يوجد بل كان يستعذب له الماء من آبار السقيا وهي على مسافة يوم من المدينة أو أكثر ، وكان أحب الشراب اليه العذب البارد . والماء الذي يوجد بين جدة ومكة في القهاوي — أي الاكواخ التي بأوي اليها المسافرون للاستراحة وشرب القهوة والشاي — كله قدر فلا أصله جيد ولا أوانيه نظيفة ، وماء ( بحرة ) التي ينزل فيها

جميع الحجاج للاستراحة رديء غير عذب . ويقال ان بالقرب منها بئر لا بأس بمائها ولكن لا يسهل الا على الاقلين الوصول الى شيء منها . فمن الضروري للمسافر الذي يعني بصحته ان يحمل ما يكفي من الماء بين جدة ومكة في سفره من كل منهما الى الاخرى . وللشقادف قتل من الفخار يربطونها في مؤخرتها فيكون ماؤها مقبولا ولا سيما في الليل

### القهوات في طريق مكة والذكور

نزلنا بعد المغرب في أول قهوة من القهوات التي أشرنا اليها آنفا فأذنت وصليت المغرب والمشاء جمعا وقصرا وصلى معي الرفاق وشربت الماء المثلوج وشرب الرفاق القهوة وبعد أن استرحنا قليلا أعطيت صاحب القهوة ههم أضغاف المعتاد فدعا لنا ، وركبنا حمرنا وركب الجنديان هجانتهما ومررنا لانرى من الحجاج في الطريق الا سودان الذكور ومشاة على أرجلهم رجالا ونساء وأطفالا يحمل الرجال حراهم والنساء أطفالهن على ظهورهن وما لديهن من المتاع والزاد على رؤسهن ، وكنا نرى بعضهم نياما على جانبي الطريق ، فهم ينامون اذا تعبوا فاذا استيقظوا في أي ساعة في ليل أو نهار مشوا لا يخافون الاصوص ولا قطاع الطريق ، وقد قيل لنا انه لا يتعرض لهم أحد بسوء ، لانه لا يكاد يوجد معهم شيء له قيمة ينتفع به الاصوص من الاعراب هنالك فأكثرهم عراة لا يملكون من اللباس ما يزيد على ستر العورة ولباس جميع رجالهم ونسائهم الابيض وهم مع ذلك يدافعون عن أنفسهم دفاع الابطال بحراهم السودانية فلا يستهان بهم مع كثرتهم ، فانهم منتشرون طول الطريق لا تبعد ثلة منهم عن أخرى الا قليلا ، والاصوص قلما يكونون كثيرين الا اذا كانوا يقصدون سلب القوافل الكبيرة

### أمن الطريق وحادثة اعتداء

وقد كان الطريق في هذا الموسم آمنا مطمئنا لم يلبنا أنه وقع فيه اعتداء على أحد الا ما حدث بالقرب مما فاننا سمعنا قبل انتهاء الثلث الاول من الليل صوت طلق رصاص استفز الحارسين اللذين معنا فسأتهما ما هذا ؟ قالا « قوم » وهم يبنون بكلمة القوم الاصوص وقطاع الطريق ، وأشارا علينا بأن نسرع في السير ما استطعنا

وتقصد قهوة كنا نرى ضوءها فننزل فيها ، وتركنا مسرعين بهجانهما الى الجهة التي سمع منها صوت الرصاص ، وطققنا نحن نلكز حمرنا مسرعين بها الى تلك القهوة فبلغناها بعد جهد وعناء فاسترحنا فيها ساعة وشرب رفيقاي الجندي والمصري الذي الفيناها في الطريق الشاي ورأينا هناك أناسا من الفقراء يطلبون من القهوة طعاما . ثم جاء الجنديان مع رجل آخر . فأخبرا أن القوم (قطاع الطريق) الذين سمعنا صوت رصاصهم قد شردوا بعيرين للرجل الذي عاد معهما ولرفيق له وكانا عائدتين من جده بعد بيع ما كانا حملاه اليها وان خفراء الطريق ما زالوا يقتفون أثرهم ، وقال الرجل انه لم ير هو ورفيقه الا لصا واحدا ولكنه مسلح وهما أعزلان

### النزول ببحرة

وبعد استراحة الجنديين وشربهما الشاي أكرمت صاحب القهوة واستأنفنا السرى فبلغنا (بحرة) في منتصف الليل تقريبا ورأينا أنوار ركب المحمل المصري بالقرب من الخصاص التي بأوي اليها الحجاج وغيرهم من المسافرين. والخصاص جمع خص وهي البيوت من عيدان الاشجار أو القصب أو غيره من النبات، وهي هنالك كثيرة تسم الالوف الكثيرة من الناس وعلى جانبي الطريق سوق منها فيه الحيوانات والقهوات وان شئت قلت الخانات أو الفنادق لايواء المسافرين فيجد المسافرون فيها الماء والحبز واللحم والبيض وأنواعا أخرى من الاغذية وقهوة البن والشاي ، والموسرون من المسافرين قلا يحتاجون الى شيء منها لانهم يحملون زادهم من جدة أو مكة لهم بأن ما يوجد هنالك غير نظيف ولا جيد . والخصاص التي وراء هذه السوق التي في الطريق العام عبارة عن دور يتألف كل منها من عدة بيوت يمكن ان يحمل بعضها للنساء وبعضها للرجال ولها امراض وراء المساكن . وقد نزلنا في قهوة كبيرة كنا أوصينا بالنزول فيها فاسترحنا فيها ساعتين كاملتين وكنا قد جمعنا فأكلنا مما نحمل من لحوم الضأن والدجاج والسماك والخضر والحلوى والفاكهة وشربت الماء المثلوج وحمدت الله تعالى حمدا كثيرا . وأحببت أن أعرف ابن نزل جماعتنا فمضرت على ذلك

### السرى من بحرة ومسألة أمن الطريق

ولما اردنا استئناف السرى استأذنتي الجنديان في البقاء ببحرة لانها بريضان

العودة صباحاً الى جدة ، وجاءني بجنديين عربيين من المشاة فقالا هذان من جنود سيدنا الموكلين بحراسة الطريق وهما يقومان مقامنا فسرنا ومشيا امامنا يحمل كل منهما بندقية من الماوزر على كتفه شادا منطقة من رصاصها المنضود في وسطه وهو حافي القدمين ليس عليه الا قميص قصير فسألت أحدهما عن أمن الطريق فقال ان الامن تام ولا خوف عليكم في الطريق ، قلت أرأيت اذا هجم علينا قوم كثيرون فاذا تغني عني أنت وصاحبك ؟ قال ان القوم الكثيرين لا يمتدون على الافراد أو الجماعة القليلة من المسافرين وإنما يتصدون القوافل الكبيرة التي تحمل ما يحتاجون اليه من الطعام ونحوه ، والقوم القليلون لا يتجربون على جنود سيدنا وان كانوا أقل منهم ، وفي الطريق على طوله مخافر متقاربة يمكن ايصال أبناء الاعتداء من بعضها الى بعض بسهولة . وحقا ما قل فانا كنا بعد مفارقة جدة بقليل نرى تلك المخافر على جانبي الطريق وكثير منها في الروابي والهضاب وهي كثيرة متقاربة ، وكان هذان الجنديان كلما أبصرا أحدا في الطريق على مقربة منا أسرعنا اليه قبل وصوله الينا وعرفنا حاله . وقد رأينا في طريقنا قبل بجرة وبعدها كثيرا من القوافل قاصدة جدة اما من مكة واما من الطائف وهي التي نحمل الفاكهة كالرمان والعنب والسفرجل ، ورأينا ايضا كثيرا من الافراد والجماعات يقصدون جدة . وفي أثناء الساعة الثانية وصلنا الى قهوة استرخنا فيها قليلا واستأذنتي الجنديان بالتخلف وأوصيا جنديا كان هنالك بان يصحبني الى مكة ، وكانت المسافة قد قربت وعلمت منهما انهما جائعان وليس معهما شي ، فأعطيتهما ما تيسر من الدراهم

ثم أدلجنا وسألت الجندي عن حال الامن في تلك البقعة فقال ان هذه الارض أرض هذيل الذين أنا منهم وهم لا يسرقون ولا يمتدون على أحد وان ماتوا جوعاً بل يعبشون بمواشيهم وأما اللصوص وقطاع الطريق هم عرب الشمال . وبعد ان أصبحنا وصلنا الى مكان فذكر لي حادثة من الحوادث المثبتة لامانتهم قال مات في هذا المكان رجل من حجاج المغاربة يظهر انه كان مريضاً فتمب في الطريق فتحول عنه الى هذا المكان للاستراحة فمات فيه وكان له ولد مفرد عنه وصل مكة فلم يجد والده فعاد ينشده في الطريق وكان بعض عربنا قد رأوا الميت ووجدوا معه كيساً

كثيرا فيه تقود كثيرة فحفظوه وما رأوا الولد دلوه على و- به تقوده وأعانوه على دفنه ولم يأخذوا من الكيس شيئا ولو شاءوا لا أخذوه منه

وجملة القول ان العناية بحفظ الامن في هذا اليوم كانت كبيرة وانني لم اسمع من أحد من الحجاج شكوى اعتداء على نفس ولا مال، ولكن حدثني الوالدة بعد الوصول الى مكة المكرمة انه عرض لهم في الليل رجل ادعى انه من الحجاج المصريين من المنصورة وأنه فقير لم يجد ما يركبه وكان يحاول أن يركب البعير الذي عليه اسقاطنا وصناديقنا فينهره أحد الجنديين اللذين مهمم بالكلام فيتحول قليلا ثم يعود، ولم ينصرف حتى هدده بالضرب واتهمه بأنه يريد ان يركب البعير ويشرده ويذهب به وأنه لا بد أن يكون له رفاق ينتظرونه . ويجوز ان يكون الرجل صادقا ولكن اساءة الظن في هذا المقام من الفطنة . والفضل الاول في هذا الامن الذي لم يسمع بمثله منذ قرون لشخص الشريف الحسين بن علي . (١) وقد كان السيد الزواوي قال لي منذ بضع سنين أنه لم ير أقدر من هذا الامير على حفظ الامن في الحجاز كله وسياسة العرب فيه

بحث لغوي في الحجر والفهر والصخر

لم أستفد من حديث هذا الاعرابي الجندي ولا من حديث من قبله فائدة لغوية تذكر على اني اكثر من الكلام مع هذا ما لم أكثر مع الآخرين ورأيتهم أفصح منهم وذكرت له أبحاثا من الشعر العربي فرأيتهم لا يفهم جميع مفرداتها ولكنه امتحنني بالسؤال عن شيء أبيض في الجبل - ولون الجبل أسود بل أصهب - قلت أي شيء هو؟ قال ما هو مثل الشاة؟ - والضم هناك أبيض اللون - قلت نعم . قال هذا فهر . وأقول إن المشهور في كتب اللغة ان الفهر الحجر الصخر الذي يؤخذ باليد ويدق به الجوز ونحوه ، وقال بعضهم الذي يملأ الكف ، وذلك الحجر كبير لا يمكن رفعه بيده واحدة ولذلك رجعت الى معاجم اللغة فرأيت في لسان العرب بعد تعريفه بما ذكرت آنفا « وقيل هو الحجر مطبقا » ومن العجيب انه قد فسر هو والفهر وزبادي الحجر بالصخرة ، والصخرة بالحجر العظيم الصلب . وهو تساهل أو تقصير في تحديد الماني . والصواب ان الحجر اسم جنس لهذه الاجسام المعروفة

(١) نهنا قبل على ان حوادث الرحلة حدثت قبل المبايعة بالملك فبقى التمييز فيها على ما كان عند وقوعها

يطلق على صغيرها وكبيرها وعلى الصلب الشديد اليوسة منها وغيره . وقالت العرب :  
استحجر الطين أي يبس فصار حجرا . والصخر ما عظم من الحجارة وأحدته صخرة ،  
والحصي صغار الحجر وأحدتها حصاة وجهها حصيات وحصي . قلها ابن صيده في  
المخصص ، وهذا ما يفهمه جميع الناطقين بالضاد من معنى الحجر والصخر والحصي .  
وقول اللسان في الفهر « وقيل الحجر مطلقا » على ضمفه لا يؤخذ على إطلاقه والذي  
ظهر لي من قول أهل اللغة ومن كلمة الاعرابي الهذلي ان أكثر العرب كانت تطلق  
الحجر على الحجر الذي يؤخذ باليد الواحدة للدق به والكسر أو الحذف والرجم ، وقليل  
منهم أطلقه على ما يؤخذ بكفتي اليدين لثق شيء أو ضرب به ، وأكثر العرب تؤنث  
الفهر ، وورد تذكره في حديث حمالة الحطب فانها أخذت فبرا وجاءت لتضرب به النبي  
(ص) فلم تره فقالت لابي بكر (رض) - وهو معه - : لو وجدت صاحبك لشدخت  
رأسه بهذا الفهر . نقله شارح القاموس بهذا اللفظ عن الروض . قال صاحب الهمزية :

وأعدت حمالة الحطب الفهر ر وجاءت كأنها الورقاء  
يوم جاءت غضبي تقول أني مث لي من احمد يقال الهجاء  
وتوت وما رآته ومن أب ن ترى الشمس مقلة عمياء

### قهوة سالم

وقد بلغنا قهوة سالم مصبحين وهي في حدود الحرم على مقربة من مكة - وكنا  
مررنا ايلا بالعلمين المنصوبين لحدوده - فصلينا فيها صلاة الفجر ثم لم أملك نفسي من  
التعب والنماس ان اضطجعت فذمت حتى طلعت الشمس . وكنت غارما على الاغتسال  
في هذه القهوة لدخول مكة عملا بالسنة وسألت في جدة وفي الطريق عن مكان يمكنني  
أن اغتسل فيه فقبل لي قهوة سالم ، ولكنني خشيت على نفسي المرض من الاغتسال  
وقتئذ بالماء البارد مع شدة الاعياء فاكتمت بالوضوء . ورأيت أن أمشي ميلا أو ميلين  
لتلين عروقي رجلي ووركي وأعصابهما المتبسة من طول الركوب الذي طال علي عهده  
فعمات وضايقتي دخول الرمل في نملي فمشيت حافيا ضاحيا (أي بارزا للشمس) كسودان  
الذكرور الذين كنت أراهم أمامي وخلفي وهن بيبي وشمالي منذ خرجت من  
جدة الى ان دخلت مكة

### أسرى الترك

ولما قربنا من مكة وظهرت لنا ضواحيها رأينا أسرى الترك الذين أسره العرب في الطائف خارجين منها مشاة في الطريق اليسرى مرسلين الى جدة يخفرونهم قليل من الجنود الاعراب ، وفي اليوم الثاني من دخولنا مكة رأينا فيها ضباطهم ركوباً على الابل متلفعين لا ترى الا أعينهم وأنوفهم وهم مرسلون الى جدة يخفرونهم قليل من جنود الاعراب المدجانية وكان قد بلغنا في جدة خبر فتح الشريف الامير عبد الله للطائف بمد ان حاصرها عدة أشهر وتسليم قائد الحامية التركية غالب باشا الذي كان والي الحجاز له وفد الامير لاستقبال العبد الفقير

ولما بلغنا قهوة المعلم وهي آخر قهوة بين جدة ومكة رأيت صديقنا الاستاذ الكبير السيد عبد الله الزواوي مفتي الشافعية بمكة المكرمة مع بعض ولده و بعض المكين فأقبل لاستقبالي ونزلت عن دابتي فتعاطنا وتصافحنا وجلسنا للاستراحة وبعد السلام قال لي ان هذا الوقت هو وقت دخول سيدنا الشريف عبد الله نجل سيدنا الامير مكة قادماً من الطائف بعد ان تم فتحها على يديه وقد أعد له احتفال كبير وخرج سيدنا بجميع الشرفاء والوجهاء ورجال الحكومة الى خارج البلد لاستقباله ، ولما علم بأن قدومك يتفق في هذا الوقت أوفدني من قبله لاجل استقبالك وأرسل اليك بغلته هذه مع من ترى من حجاب سيادته لتدخل عليها مكة - وأشار الى بغلة ذهبا مشدودة مع حاجبين أبيضين اللون بثياب حرر كالثياب التي يلبسها قواصة وكلاء الدول - ولو جئت قبل هذا الموعد لرأيت من العناية باستقبالك ما يسرك ولكنك معنا الآن في استقبال صديقك سيدنا الشريف عبد الله ، ولندخت بك مكة من الطريق التي دخل منها سيدنا الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقابلت هذه العناية الهاشمية بالشكر والثناء وخاص الدعاء هذا واتي كنت عازماً عند الوصول الى جدة ان أكتب الى هذا الصديق الوفي أكلفه أن يستأجر لي ولبن مهني داراً ننزل فيها ولكنه كلمني بالسرعة (التلفون) من مكة فقال ان سيدنا الامير اعزه الله قد أمر باعداد منزل لك مؤلف من دائرتين احدهما للرجال والاخرى للنساء وفيه جميع ما يحتاج اليه من الاثاث والماعون والخدم وهو بهرب الحرم الشريف . وعلمت من هذا الصديق انه كان يتمنى أن ننزل في داره

ضيوفاً عليه لو لم يتفضل (سيد الجميع) بقشريفاً بضيافته السنوية الهاشمية  
وقد تذكرت الآن - والشهيء بالشهيء يذكر - ان صديقي السيد يوسف  
الزواوي كبير نجار مسقط وسرواتها - الذي مر ذكره في هذه الرحلة وهو من آل  
هذا البيت - كان قد كتب الي وأنا في بمباي ثغر الهند الاوّل سنة ١٣٣٠ يقول  
انه بانته انتي عازم على زيارة مسقط ويدعوني الى النزول في داره ولم يكن يعلم أن  
سمو سلطانها السيد فيصل رحمه الله وطيب ثراه قد أمر مندوبه في بمباي بدعوني الى  
ضيافته وبأن يجبره عن يوم سفري بالبرق (التلغراف) فلما جئت مسقط ونزل السيد  
الى الباخرة مع من نزل من ولد السلطان وحاشيته في زورقه البخاري لاستقبالني فيها  
أخبرني بما كان تمناء واستعدله من حسن الضيافة لولا ان سمو السلطان نفس عليه  
بذلك وقال له أنت تنتظر مثل قدوم فلان على بلدنا وتريد ان تستأثر بضيافته من  
دوننا ؟ ولكن السيد يوسف أحسن الله اليه أدب لي مادبة عظيمة في نفس مسقط  
دعا اليها جميع كبرائها ووجهائها ومادبة أعظم وأفخم منها في داره بمزرعة في ضواحي  
مسقط دعا اليها كبراء مسقط ووجهاء البلاد المجاورة لها حضرها عشرات منهم فقضينا  
معهم يوماً كاملاً من أطيب أيام الحياة ذكرناهم فيه بآيات الله فألفينا آذاناً صاغية  
وقلوباً واعية . وكذلك الاستاذ السيد عبد الله حياهم الله تعالى فإنه أدب لنا عدة  
مآدب فخمة ، حضر بعضها أهل العلم والوجاهة من حجاج المغاربة ، وسيجي ذكر  
هؤلاء المغاربة في هذه الرحلة

### ﴿ دخول مكة المكرمة والطواف والسعي ﴾

بعد ان استرحنا قليلاً ركبت البغلة التي تفضل بارسالها الي سيدنا الامير ،  
ومشى أمامي حاجباه وركب السيد الزواوي فرسه الينة السبر ونجده السيد عبد الرحمن  
دابته وسارا الي جانبي ، وركب مطوف بلدنا (طرابلس الشام) الشيخ محمد الحريري  
ونجده دوابهما وسارا ورامانا ، فلما دخلنا مكة ومررنا في أسواقها جعل الناس يقومون  
على الجانبين تكرماً لمن كرمهم ومقدم من الملكة ، وان كانوا لا يعرفون شخصه  
ولا صفته ، حتى اذا ما بلغ السبر بنا بيت الله الحرام ، دخلناه ومررنا فيه من باب

بني شيبه<sup>(١)</sup> حيث دخله سيد الرسل عليه أفضل الصلاة والسلام ، فلما وقعت العين على الكعبة المعظمة ، التي كساها الله تعالى حلل المهابة والعظمة ، قلت كما كان يقول عمر بن الخطاب عليه الرضوان : اللهم انت السلام ومنك السلام ، فحينما ربنا بالسلام . وقفيت على ذلك بالدعاء الذي ورد ، وان لم يصحح به السند ، : اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابةً ، وزد من شرفه وكرمه ممن حججه أو اعتمره تشريفاً وتعظيماً وتكريماً وبراً .

وظفت طواف القدوم والمرة سبعة اشواط ، وطاف معي ، طوافاً رافعا صوتاً بما يحفظه من الثناء والدعاء — وهو ما اعتاد المطوفون تلقينه للحجاج — وأنا أدعو واثني بما أعلم وما أطمح . وقد ذكرني المطوف بما كدت اذهل عنه من الرمل في هذا الطواف ، وما يسر فيه من كشف المنكب الذي يكون بالاضطباع ، وبعد الطواف صليت ركعتين وشربت من ماء زمزم ، ثم خرجت من باب الصفا لاجل السعي بين الصفا والمروة ، كنت أحب أن أطوف بالصفا والمروة ماشياً ولكن السعي بينهما سبع مرات عبارة عن قطع ثلاثة كيلو مترات مشياً وذلك ما كنت أعجز عنه في ذلك الوقت لما عرض لوركي من التعب والالام من الركوب عامة الليل على حمار غير فاره لولا الإشتاق له طول الطريق لحسرتي مرارا ، ولم تثنى ركبتيه للركوع ، ومنعه جسدي الرمن من السجود ، فسميت راكبا على البفلة وهو جائز ورملت بها في موضع الرمل وهو ما بين الميلين ( الممودين ) الاخضرين النائتين من جدار الحرم . وقد بينت في المناسك ان جميع مناسك الحج قد شرعها الله تعالى على لسان ابراهيم واسماعيل عليهما الصلاة والسلام الا الرمل في الطواف والسعي فانه من آثار نبينا صلى الله عليه وسلم فعله مع الاضطباع وهو عبارة عن كشف المنكب الايمن واظهاره ليظهر قوة المسلمين للمشركين في عمرة القضاء ، اذ كان بلغه انهم قالوا ان محمداً وأصحابه لا يستطيعون أن يطوفوا بالبيت من الهزال ، وكان بلغه عنهم في الحديبية انهم قالوا

( ١ ) هو الآن في صحن الحرم كأنه قوس منصوب وبقائه في جدار الحرم الشرقي بابان يسمى أحدهما باب العباس والثاني باب علي وفي وسط هذا الجدار الباب الذي يسمونه باب النبي (ص) يليه في الجانب الشمالي باب السلام الذي يدخل منه أكثر الحجاج

في المؤمنين : أوهنتهم حتى يهرب

وبعد السعي عدت إلى دار السيد الزاوي إجابة لدعوته فرأيت من طريق آخر وحجاب الأمير أممي والكثيرون من الناس يقفون في دكاكينهم وفي الطريق من الجانبين فأحييهم بالسلام وبالإشارة حتى إذا ماجت الدار أعد لي ماء للاستحمام فاغتسلت وتفديت مع السيد وولده ونمت وكان المرقد اشتد فلم أنم الا قليلا . وقد أتت السيد متى تحب أن أذهب بك لزيارة سيدنا الأمير ، فقلت له اتى كنت محرما بالعمرة وقد أدبت طوافها وسميها وسأقصر شمري وأحلل منها ، ولكن ثيابي مع الوالدة والرفاق فتى وصلوا ألبس ونذهب ، ورضيت اليه في الذهاب الى الدار المعدة لنا لاجل انتظارهم فيها ، ولما جئت الدار وجدت على الشارع العام بجوار باب الحرم الغربي الكبير المسمى بباب ابراهيم ، وقد تأخر وصول الجماعة الى قرب المغرب فلم نتسرف بتلك الزيارة الا ليلا ، وسأذكر لقاء الامير وشيئا له في فصل آخر ،

### ﴿ الحالة الروحية عند أداء المناسك ﴾

#### وحكم التلبية والطواف والسعي

الحج عبادة روحية جسدية اجتماعية فهو تربية عالية للانسان منفردا ومجتما . أي تربية كاملة له ، فان الانسان مركب من جسد وروح ، وقد خلق لعيش مجتما . وفي الحج تقوية لجسده ولروحه ولرابطه الاجتماعية . أما كونه رياضة بدنية مقوية للجسد فظاهر في جميع المناسك فالاحرام ضرب من الرياضة والسفر كذلك قد وصفت لك أيها القارئ سفري من جدة الى مكة ، وعلمت بالاجمال ما قاسيت فيه من المشقة ، مع استكمال أسباب الراحة وقرب الشقة . وفي الطواف والسعي رياضة المشي التي يصف الاطباء نفعها ويوصون بها ، فدائرة المطاف حول الكعبة المعظمة لا يقل متوسطها عن مئة متر وأقل الطواف سبعة أشواط ( مرات ) ومن الناس من يطوف في اليوم والليلة أسابيع كثيرة متصلة ومنفصلة ، أما أنا فلم أستطع أن أزيد على سبعة أسابيع في أمثل الاوقات وأعد لها وهو وقت

السحر، لما كنت عليه من ضعف البدن، وكان رفيقي وأخي في الله الشيخ خالد يطوف ضمعي ذلك أو يزيد. وإذا كان أقل الطواف وهو أسبوع عبارة عن مشي ثلاثة أرباع الكيلو فان السمي بين الصفا والمروة سبع مرات يقرب من مشي ٣ كيلو وأما كونه مقويا للروابط الاجتماعية فلما فيه من التعارف والتآلف بين الشعوب المختلفة في أفضل بقاع الارض وفي أحسن الاحوال التي يكون عليها الانسان في هذه الحياة وهي التجرد من شواغل الدنيا والتوبة الى الله تعالى من جميع المعاصي والآثام وأما كونه عبادة روحية مهيبة للنفس بتقوية شعور الايمان فهو المقصود بالذات الذي يجب ان يتمحري وينوى ويلاحظ عند كل عمل من أعمال المناسك، وهالك خلاصة وجيزة من العلم والاختبار في ذلك :

#### الحالة الروحية في طريق مكة . وتأثير التلبية

كنت قبل عودة المشيعين لي من جدة ألي في السر قليلا ، وأتكلّم معهم كثيرا ، فلما عادوا وولى النهار بأنسه وبهائه ، وأقبل الليل بوحشته وظلمائه ، هدأت المشاعر ، وقرت النواظر ، وخشمت السرائر ، وتزاحمت الخواطر ، فكان الغالب منها على الفكر والقلب ، ما يثيره تأثير الزمان والمكان وزمي . لأحرام في النفس ؛ فأما الزمان فهو شهر ذي الحجة الحرام ، وأما المكان فهو الطريق الى بيت الله الحرام ، وأما زمي الاحرام ، فهو الذي كان ينزيتا به ابراهيم خليل الله ، واسماعيل ذبيح الله ، ومحمد خاتم رسل الله ، وغيرهم من رسل الله الكرام ، عليهم الصلاة والسلام ، وكل من حج البيت أو اعتمره ، من أصحابهم وأتباعهم هداة البشر ، فيالها من ذكرى لذي اللب ، يخشع لها القلب ، ويرجى بها رضوان الرب ، بما تثمره من قوة الايمان ، وطهارة الوجدان ؛ وخلوص السر والاعلان ، ولو لم يقترن بها ذكر لسان ، ولا عمل أركان ، فكيف اذا صحبها تكرار التلبية ، التي تزيد حرارتها تذكية ؛ واخلاصها تزكية : لبيك اللهم لبيك لبيك ، لا شريك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

تأملت نفسي في تلك الليلة الليلية ، والطريق الجرداء ، فأرأيتني حاسرا حافيا في ازار ورداء ، غير مبالي بما يكون من تأثير الهواء ، وهي حال لم أعهد لها في سالف

الايام ، الا بين جدر الحمام ، وقد كان الهواء عند خروجنا من جدة حارا رطبا ، وكانت الدابة وهي في أول السير تنهب الارض منها ، وهذه ثلاثة أسباب ، يتفصد بها العرق من الإهاب ، ثم كنا كلما أوغلنا في السرى وتغلطنا في البيداء ، نشعر بجفاف الجو وبرد الهواء ، حتى اضطررت الى اخراج سجادة صلاة كانت تحمي ، فوضعتها على عاتقي فلم تفن عني ، فأخرجت الصبابة فتلفت بها ، جاعلا لاجل الاحرام أعلاها أسفلها ، ولم أخف من أذى يصيبني من برد الليل ولا ضرره ، ولم يعرض لي سأم من طول السرى ولا ضجر ، فان مسني طائف من شيطان الوسوسة : ذكرت الله تعالى فطرده بالتلبية : لبيك اللهم لبيك لبيك ، لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

ويلله ما أحلى التلبية في تلك الغلوات ، وما أعظم الانس بها في حنادس الظلمات ، اذا خشمت بها الاصوات ، واستمطرت بها العبرات ، ومن دقائق حكم الشرع استحبابه رفع الصوت بها للرجال ، وتجديدها بتجدد المناظر واختلاف الاحوال ، فرفع الصوت بها ينفي الوسواس ، واذا كان في الليل يطرد النعاس ، وهو أجلب للخشوع ، وأذرف للدموع ، واستثاقها عند اختلاف الاحوال وتجدد المناظر ، أدعى الى دوام الذكر وعدم تفرق الخواطر ، فكنت كلما علونا نجدا ، أو هبطنا غورا ، أو نزنا مكانا ، أو استأنفنا سرانا ، أو اقمنا مشاة أو ركبانا ، جأرت الى الله تعالى : لبيك اللهم لبيك لبيك ، لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

#### تأثير رؤية الكعبة والطواف بها

تلك التلبية تملأ قلب متدبرها إيمانا وتوحيدا ، وتجرده من الخطوظ والاهواء تجريدا ، وتمده لزيارة بيت الله والطواف ، وهو في أحسن حال وأنتم استمداد ، حتى إذا اكتسحت عينه برؤية الكعبة المعظمة ، وراع القلب ماجلها من المهابة والعظمة ، تذكر أنها أول بيت وضع للناس مباركاً وهدى للعالمين ، وبخسه الله بالآيات البينات الباقية على بقاء الايام والسنين ، ورأى أمامها مقام ابراهيم عليه وعلى نبينا وآلها الصلاة والسلام ، ووجد نفسه حيث كان بدء دين الله الاسلام وحيث الختام ، فاذا دنامن مهبط الروح الامين ، ومطاف الملائكة والنبين ، والصديقين والشهداء والصالحين —

فلأنسل ثم عن الدموع كيف تنسكب ، وعن الصلوع كيف تضطرب ، وعن الاعناق كيف تخضع ، وعن القلوب كيف تخشع ، ولا عن وجدان الايمان ، كيف يتألق نوره في الجنان ، ويفيض بيانه على اللسان ، فيحركه بما يلهم من انشاء ، وما يشعر بالحاجة اليه من الدعاء ، وما يذكره أو يذكره به من المآثر ، من مرفوع أو موقوف ، لا تسأل أيها القارئ عن شيء من ذلك ، ولا عن غيره مما يكون عند أداء المناسك ، فمن ذاق حرف ، ومن حرم انحرف

على هذه الحال تدخل الحرم المقدس ، تظاهر القلب والبدن من الحدث والدنس ، فتأتي الركن الاسود ، حيث العظمة والسودد ، فتقول بسم الله الله أكبر ، فيصفر في قلبك كل شؤون البشر ، ثم تبدأ الطواف ، مع النية والاخلاص ، بلمس الحجر وتقبيله ان قدرت ، وبالاشارة اليه ان أنت عجزت ، ولا بأس بأن تذكر ما روي من انه رمز الى يمين الله التي لا تشبه الايمان ، وان استلامه وتقبيله في معنى تحية رب البيت ومبايعة على الايمان والاسلام والاحسان ، ومن أنه يشهد لمستلمه يوم القيامة كما تشهد الاعضاء - وبأن تقول بلسانك أو قلبك ، كما قال أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب من قبلك : انني أعلم انك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبلك (١) لما قبلك ، فتقبيلك ليس لذاتك الحجرية ، ولا لمنفعة فيك مرجوة أو مضره مخشية ، ولا هذا الطواف الذي بك يبتدأ وعندك ينتتم ، في معنى عبادة الوثن وتمظيم الصنم ، وإنما هو خضوع لامر الله ، واقتداء برسول الله ، وتمظيم لما عظم الله ، وأنس بالقرب مما نسب الى الله ، يكمل به توحيد الله ، وتنمي به محبة الله ، فن شأن المحيين الانس بكل ما ينسب الى المحبوب ، ولا سيما اذا تعذر اللقاء وعز الوصول ، وكم نظموا من الاشعار في الوقوف بالاطلال والطواف بالآثار

أمر على الديار ديار ليلي      أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قاجي      ولكن حب من سكن الديارا

ولما كان الرب العلي العظيم ، الجدير بأعلى مراتب الحب والتعظيم ، لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار ، ولا يراه عباده في هذه الدار ، كان من رحمته بالمؤمنين المحيين ،

(١) عبارة عمر ولولا اني رأيت رسول الله (ص) يقبلك الخ رواه الجماعة كلهم

أن وضع هذا البيت للطائفين منهم والعاكفين ، ونسب إليه ، ليكون تعظيماً له ،  
 فإذا مضيت في الطواف بينما صاحبها هذه الذكري ، جعل البيت من الجهة اليسرى ،  
 فاشغله بالتناء على الله والدعاء لنفسك . ولا لك وصحك ، ولا منك وأولي أمرك ، فإذا  
 بلغت الركن اليماني ، وهو الجنوبي الغربي ، فاستلمه إن سهل عليك فإنه على قواعد  
 إبراهيم ، التي ذكرها الله تعالى في القرآن العظيم ، ومضى انتهيت إلى مقابله وهو  
 الركن الأسود ، فقد أتممت من طوافك الشوط الأول ، وبقية الأشواط مثله في  
 الشروط والآداب ، كالخشوع والتذكر وترك غير الضروري من الكلام ، وعدم  
 التهافت على استلام الركن والحجر عند الزحام ، فإذا أتممت السبعة الأشواط ، فاختتم  
 دعائك بين الركتين بقوله تعالى ( ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا  
 عذاب النار ) ثم صل ركتين سنة الطواف ، والأفضل أن تصليهما وراء المقام ،

#### تأثير السمي وحكته .

السمي بين الصفا والمروة ركن من أركان الحج والمرة ، وليس له نفل فلا يفعل في  
 كل منها أكثر من مرة ، ويجب أن يكون بعد الطواف ، ولا يشترط فيه شروط الصلاة .  
 فإذا جئت الصفا ، فاقراً كما قرأ الرسول ( إن الصفا والمروة من شعائر الله ) وقل كما قال  
 « بدأ بما بدأ الله » ثم اصعد درجة أو أكثر واستقبل البيت الحرام ، فإذا رأيته قتل  
 كما كان يقول عليه الصلاة والسلام : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له . له الملك  
 وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ،  
 وهزم الأحزاب وحده » ، وادع الله تعالى مكرراً ذلك ثلاث مرات .  
 وتذكر عند السمي أنه ذكرى سمي جدتنا السيدة هاجر عليها الرضوان ، أم آيينا  
 اسماعيل عليه الصلاة والسلام ، وعلى أبيه ، وصفوة بنيه . وإلهام من ذكرى محمد  
 العرب الكرام ، ومعجزات الإسلام ، مثبتة لحفظ الله تعالى لهذه الأمة ، وهمايته بهذه  
 الأمة ، حفظتها العرب بالصل المتواتر . ولم تحفظت ما هو دونها من المآثر . وما يحفظ  
 بالتشليل والمحاكاة ، يكون أثبت مما يحفظ بالتلقين والروايات ، ولكنهم مزجوا مناسك  
 الحنيفة ، بخرافات الوثنية ، فإن كانوا قد وضعوا صنمين على الصفا والمروة ، فقد  
 وضعوا ٣٦٠ صنماً على الكعبة ، ثم طهر الله تعالى هذه البقاع بالإسلام ،

وأعادها الى ما كانت عليه في عهد ابراهيم واسماعيل عليهما وآلهما الصلاة والسلام ،  
 وروى البخاري وغيره من طريقين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما كان  
 بين ابراهيم وبين أهله ما كان (١) خرج باسمعيل وأم اسمعيل ومعهما شنة (٢) فيها  
 ماء ، فجعلت أم اسمعيل تشرب من الشنة فيدر لبنها على صبيها حتى قدم مكة فوضعها  
 تحت دوحه - زاد في الرواية الاخرى فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة  
 يومئذ أحد ولا بها ماء ووضع هذها جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء - ثم رجع ابراهيم  
 الى أهله فاتبعته أم اسمعيل حتى لما بلغوا كداء نادته من ورائه يا ابراهيم الى  
 من تركنا ؟ قال الى الله ، قالت رضيت بالله - وفي الرواية الاخرى أنها قالت  
 اذا لا يضيعنا ، وفيها أنه لما كان عند الثنية أي ثنية كداء حيث لا يرونه استقبل  
 بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال (ربنا اني أسكنت من  
 ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من  
 الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ) قال فرجعت فجعلت  
 تشرب من الشنة ويذر لبنها على صبيها حتى لما بقي الماء قالت لو ذهبت فنظرت  
 لعلني أحسن أحدا - زاد في الرواية الاخرى حتى اذا نفذ ما في السقاء (أي الشنة)  
 عطشت وعطش ابنها فجعلت تنظر اليه يتلوى أو قال يتلبط فانطلقت كراهية ان  
 تنظر اليه - (قال) فذهبت فصعدت الصفا فنظرت ونظرت هل تحس أحدا فلم  
 تحس أحدا ، فلما بلغت الوادي سمعت وأتت المروة ففعلت ذلك أشواطا ثم قالت لو  
 ذهبت فنظرت ما فعل يعني الصبي فذهبت فنظرت فاذا هو على حاله كأنه ينشغ (٣)  
 للموت فلم تقرها نفسها فقالت لو ذهبت فنظرت لعلني أحسن أحدا ، فذهبت فصعدت

(١) أهله امرأته سارة غارت من هاجر لما ولدت وحملته على طرد هاجر مع طفلهما اسماعيل ، وفي الفصل ٢٦  
 من سفر التكوين (التوراة) ان ابراهيم استاء من كلامها فأمره الله تعالى باخراجها ووعده بأن يجعل  
 اسماعيل ابنه أمة ، وفيه انه زود هاجر بخبز وقرية ماء واعطاها ابنها فتأتمت في بركة بر سبع وانه  
 لما نفذ ماؤها وتوجهت أن يموت ولدها ، ناداها ملاك الرب وأرأها الماء ووعدها بجعل ابنها أمة  
 عظيمة . وان الله كان مع الظالم وانه سكن بركة فاران . أقول وفاران من أسماء مكة كما في  
 مجمع البلدان وما يخالف هذه الرواية مما هنالك نعتهم بحرمياً . وقالوا ان ابراهيم جاء مكة على البراق  
 (٢) بثمن الثمن والنون المشددة القرية اليابسة (٣) بوزن يفتح معناه يشق من صدره

الصفا فنظرت ونظرت فلم تحس أحدا حتى أتت سبعا - زاد في الرواية الأخرى قال ابن عباس قال النبي (ص) « فذلك سمي الناس بينهما » ثم قالت لو ذهبت فنظرت ما فعل فاذا هي بصوت فقالت أعتان كان عندك خير فاذا جبريل - وفي الرواية الأخرى فقالت قد أسمعت ان كان عندك غوث فاذا هي بالملك عند زمزم - قال فقال بعقبه هكذا وغمز عقبه على الأرض قال فانشق الماء فدهشت أم اسمعيل (١) فجملت تحمرا (قل) فقال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم « لو تركته كان الماء ظاهرا » - وافظ الرواية الأخرى « يرحم الله ام اسماعيل لو تركت أو قال لو لم تعرف من زمزم لكأت زمزم عينا معينا » أي جاريا على وجه الأرض - (قال) فجملت تشرب من الماء ويدربنها على صبيها قال فرأى ناس من جرهم يبطن الوادي فاذا هم بطير - وفي الرواية الأخرى : فرأوا طائر عاتفا أي يحوم على الماء - كأنهم أنكروا ذلك وقالوا ما يكون الطير الا على ماء فبعثوا رسولهم فنظر فاذا هم بالماء فأتاهم فأخبرهم فأتوا اليها فقالوا يا أم اسمعيل أتأذنين لنا أن نكون معك أو نسكن معك - وزاد في الرواية الأخرى فقالت نعم ولكن لاحق لكم في الماء ، قالوا نعم ثم قال مصرحا بالرفع « فنزلوا وأرسلوا الى أهلهم فنزلوا معهم حتى اذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجته امرأة منهم . اه المراد منه ويليه ذكر عودة إبراهيم الى مكة لتفقد تركته أي ما تركه فيها وخبر بنائه البيت . وجرهم كقنفذ هو ابن قحطان ولكن رجح الحافظ ان قحطان نفسه من ذرية اسماعيل

فهذا حديث صرح فيه ابن عباس بما يدل على رفعه كله وان لم يسنده الى النبي (ص) في أوله ، وفيه نص صريح في بيان حكمة جعل الصفا والمروة من شعائر الله التي يحيا شعور الايمان بها ، ووجوب التطوف بهما والسعي بينهما . فانه تمثيل يذكر بتلك الواقعة التي هي من أكبر آيات الله ومظاهر قدرته ، وعنايته بتلك السيدة العظيمة القوية الايمان به والاتكال عليه والثقة به ، وبولدها الذي أراد سبحانه ان يباركه ويجهله أمة عظيمة ، كما هو منصوح في سفر التكوين من أسفار التوراة القديمة ، وأي شيء أجدر بأن نذكره هناك ونمثله كما وقع لاجل الاعتبار به ، واحياء شعور الايمان بتصوره ، من رضاء

(١) قوله فقال بعقبه هكذا أي فعل . وقوله ودهشت بففتح الهاء والدال ولا في ذر بكسر الباء

أم مرضع بأن تقيم مع طفلها منفردين بهيدين عن العمران، في واد غير ذي زرع ولا ماء ، لأن الله تعالى قد أمر بذلك أبا ولدها الذي لقنهما الايمان ، ورأت ما أيده الله به من الآيات البيّنات، وكيف نصره وحده على قومه المشركين الظالمين الاقوياء ؟  
 ليس تمثيل حال تلك الام جائمة نظامئة، والملة حائرة، وشاهد طفلها يتلوى ويتمرغ، من شدة الجوع والظأ، ويضرب بنفسه الارض كالمصاب بالصرع، وينشع أي يمشق من صدره للموت في ذلك القفر ، فيسوقها ذلك الالم الى الفرار من رؤيته بتلك الحال ، والسعي بن ذينك الجبلين القرييين من ذلك المكان ، تصعد هذامرة وتلك أخرى، ضارعة الى الله راجية ان نجد من عنده غوثا، حتى اذا ما انتهت من الشوط السابع أرسل الله تعالى روحه الامين الذي يؤيد به الانبياء ، فأنبع لها ذلك الماء ، وجعل فيه الري والغذاء ، ثم ساق ذلك الركب من جرم اليها ، وسخرهم للاقامة عندها ، ليتربي فيهم ويتذراهم ولدها، ثم يجعله أصلا لهذه الامة الكريمة، ويجعل ذلك الوادي القاحل صدفة لدرة الكعبة البثية، اذ جعله بلد يحفظ بيته الذي جعله مثابة للناس وامنا، وجعل قلوب الناس تهوي اليه من جميع الاقطار ايمانا ونسكا، ورزق أهله من الثمرات ، وسخر لهم البشر في كل زمان، ألسنا نرى في هذا الامام معجزة من معجزات هذا التسخير؟ بلى وقد ابتلى في هذا العام وما قبله الامم الغنية القوية ، المتصرفة في البلاد العامرة الخصبه الغنية، بشي ممن الخوف والجوع وتقص من الاموال والانفس والثمرات ، بهذه الحرب الاوربية التي تقطعت به الروابط وقتل المواصلات ، واقتضى دخول الدولة العثمانية في غمراتها، ان تضرب الدول المجاورة لها حجرا بحريا على جميع سواحلها ، فكان الضيق على سكان حرم الله تعالى ألما شديدا ، حتى اذا ما أوشك أن يفتك بهم الموت جوعا ، سخر الله تعالى لهم تلك الدول تحمل اليهم الاقوات والاموال ، وتنقل اليهم وفود الحجاج ، وأراهم بهذه الاغاثة العامة ، مثلا لتلك الاغاثة الخاصة ، اعني اغاثة هاجر واسماعيل ، استجابة لدعاء الخليل ، فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم ولرزقهم من الثمرات ) وكثيرا ما ذكرت الناس بذلك ، في أثناء أداء المناسك ،  
 فمن سعى بين الصفا والمروة علما بما ذكره تذكرا له معتبرا به ، فانه يشعر في قلبه بنهاه الايمان بالله وبرسل الله، ويفهم سر قوله تعالى ( ان الصفا والمروة من شعائر الله )